توافق العقــل والديــن عند ابن رشد

عبد الله العلوي

العقل وماهيته هو الجهاز البشري الذي صار عليه الجدل الكبير بين بني البشر أنفسهم سواء في تركيبته، أو في محدودية استخدامه أو كيفية استخدامه أو في تفاوته بين البشر، وهذا الجدل قائم على مدى نظرة كل واحد منهم حول العقل من نواح مختلفة، وخاصة من الناحية الدينية والفلسفية، وهذا الجدل نراه جليًا وواضحًا في مقال الأستاذ عبد القادر بن عبد ربه الذي عنوانه: «تكامل العقل والإيمان عند ابن رشد».

لقد عرّف اللغويون العقل بتعاريف متفاوتة، وفيها من التقارب ما يجعلنا نصب المعنى لمصب واحد، ونورد هنا المعنى الذي أورده صاحبا المقاييس والقاموس المحيط حيث يقولان: « إنّ العقل أصل معناه المنع، ومنه العقال للبعير، وسمي به لأنّه يمنع عمّا لا يليق»، أما علماء الدين فيمكن أن نشمل تعريفهم في قولنا إنّ العقل عندهم هو «الغريزة المدركة التي ميَّز الله بها الإنسان عن سائر الحيوانات وهي التي يسقط بفقدها التكليف الشرعي»، أما عند الفلاسفة فيقول صالح الفضالة في مقاله «معنى العقل عند الفلاسفة» إنّ العقل هو قوة النفس التي يحصل بها تصور المعاني وتأليف القضايا والأقيسة، فهو قوة تجديد، تنتزع الصور من المادة».

لقد اهتم الفيلسوف العربي الإسلامي ابن رشد بالعقل والفلسفة أيما اهتمام، مما جعله يأتي بفكرة مستنيرة نموذجية وهي فكرة وحدة العقل، ووحدة العقل قائمة على «أنه مهما بلغ الاختلاف في الأديان ظاهريًا فهي واحدة في الجوهر، وما الاختلاف الشكلي إلا تعبير جمهوري عن الحقيقة فقط»، وهذا القول يجعلنا في معمعة محتدة وهو مدى تعلق العقل بالإيمان، ويبدو من الفكرة أن ابن رشد يضعنا في قضية تقارب الأديان، وعندما نتكلم عن الأديان، هي الأديان السماوية لا الوضعية، فكل الأديان السماوية تؤمن بأنّ هناك قوة عظيمة وراء صنع هذا الكون، وهذه القوة هي الله، وهنا تكمن وحدة العقل، فالرب واحد، والعبادة لرب واحد، لكن اختلفت الشكليات والمظاهر الخارجية في كيفية عبادة الله، وهنا يجب أن نضع سؤال أرسطو في المرصاد لكي نستطيع أن نحلل هذه القضية وهو: هل العقل واحد يشترك فيه جميع البشر وبه يعقلون؟ أم خاص لكل إنسان فرد يصح بموجبه القول إنّ الإنسان يعقل؟، ونتيجة لإجابتنا على هذا السؤال نستطيع أن نستطرد في القضية التي طرحها ابن رشد.

إنّ التصور الذي وضعنا فيه ابن رشد في تقسيمه للعقل البشري الفعّال لهو تصور ممنهج متزن شيئًا ما، فالعقل عنده عقلان: عقل عملي وعقل نظري، فالعقل العملي هو العقل الذي يحصل بالتجربة كقوة تدرك المعقولات، كذا يستطيع أن يُدرك الصور الخيالية للأفعال الإرادية، والعقل النظري هو الذي يُدرك من خلاله الكليات (المعقولات) دون ارتباط بالعمل بسبب، ولمعرفة هذه القوة يجب الوقوف على طبيعة الكليات النظرية، وللإدراك العقلي -عند ابن رشد- «أن يعقل نفسه (أي هو المعقول بعينه)، لأنّه يجرد المعقولات عن المادة ويعقلها»، «والإدراك ليس انفعالاً أي لا تضعف هذه القوة إذا عظم موضوعها، والمعقولات تُدرك بالحس والتخيل لأنّها متصلة به»، فالأعمى لا يرى المحسوسات إلا أنّه تتكون له صورة خيالية في عقله عن المحسوس، فهو لا يعرف لون وشكل المحسوس، ولكن فوق كل ذلك يرسم صورة له، وكل ذلك نابع من تصور العقل لهذا الشكل، إذن «فالعقل ما هو إلا قدرة إنسانية متعاظمة قادرة على معرفة الأشياء ومعرفة الاطراد الناموسي في الطبيعة».

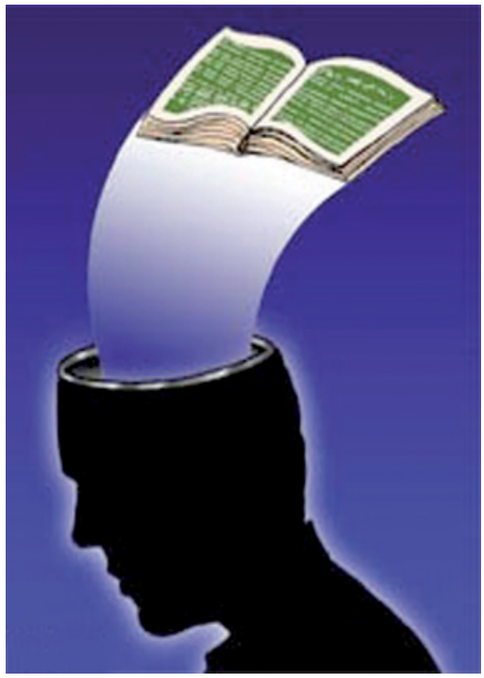

لقد أدرك ابن رشد أن «الارتقاء بالعقل يكون بالاعتناء بالعلوم، وبدون العلوم لن يصل العقل إلى الكمال»، لذا نجد أنّه لاقى رواجا كبيرًا عند فلاسفة أوربا وأمريكيا، حتى ذاع اسمه عند الفلاسفة اليهود أمثال موسى بن ميمون وجرسونيدوس، وصارت مؤلفاته وفلسفته تُدرس في جامعات أوربا، ونشأت مدرسة تنسب نفسها

لابن رشد عرفت باسم الرشدية، وقد ذاع اسمها كثيرًا في العصور الوسطى، ولعل سبب هذا الاهتمام هو أنه عكف على شرح أعمال أرسطو، ووضع تعليقاته عليها، وتبين رأيه فيها، وحاول أن يصيرها مطاوعة للفكر والمبادئ الدينية، كذا نجد الاهتمام به كفيلسوف عالمي واضحا في الكوميديا الإلهية عند دانتي حيث أورد اسمه مع الفلاسفة العظماء.

تقديس ابن رشد للعقل جعله في صدام متواصل مع الإسلاميين، لذلك لا نجد هناك إحياء لفكره وفلسفته في الوطن الإسلامي، وقد ماتت الكثير من أفكاره بسبب تعارضه –على حد قولهم- بمبادئ الدين الإسلامي، وأن الإسلام لا يسمح للعقل أن يأخذ حريته في التفكير، ويجب عقله وربطه، ولا يمكن أن نطلق له العنان في التفكر في أيّ شيء، رغم أن ابن رشد طوّع منهجه في دراسة الفقه الأكبر (الكلام) «الذي يستمد روحه من الوحي»، كذا تطويع فلسفته لدراسة الفقه العملي، وتطويعها في تطبيق القضاء عند توليه القضاء في إشبيلية ثم انتقل إلى قرطبة ليكون فيها قاضيًا كذلك في ١١٦٩، وربما هذا التصادم نتيجة لحديثه عن المتكلمين واتهامه لهم بأنّهم «خطابيون يعالجون القضايا العويصة بعقلية وهمية، وأساليب بسيطة عامية تبطل الأسباب والمسببات»، وأباد منهجهم القائم على الوهم والخرافة، منها كان هناك من المشادة الكلامية بين الطرفين، مما جعل كتبه ومؤلفاته مرمية في الأدراج المتعصبة، ولولا اهتمام الغرب بفكره، لضاع فكره هباءً منثورا.

ويبدو – مما سبق- أن إرادة الدينيين (الإسلاميين) في جعل العقل محجورًا عليه بين دفتين أمر في غاية الخطورة، فأنت عندما لا تحكم عقلك في أمر يأتيك فأنت بالكاد لا تستطيع التفكير فيما يأتيك، وتصبح بذلك مخزناً للمعلومات، فما صنع الله العقل في البشرية هكذا عبثاً حتى يجعله محكورا، فالعقل – كما يقول ابن رشد- لا يختلف عن الشريعة، «لأنّ دور العقل هو معرفة الحق، والحق واحد لا يمكن أن يتعدد، وهذه الغاية هي ذاتها التي جاء بها الشرع، فلا يوجد تعارض بين الدين والعقل، فالشرع ظاهرًا وباطنًا يرتبط بالعقل لأنّه القادر على الغوص والتعمق والتأويل فيما يوافق البراهين اليقينية التي ترفض الوهم»، ولا مفر من التوفيق بينهما، وبذلك يكونان متكاملين بحقيقة واحدة.

إنّ حاجة الوطن العربي للفكر والفلسفة الرشدية تكاد تكون حاجة ماسة، وهذه الحاجة هي حاجة أيدولوجية أكثر من كونها حاجة معرفية، أي حاجة صراع أيدولوجي ضد فكر متشدد يسيطر على الوطن العربي والإسلامي، يقول محمد حمزة في مقاله: « الحاجة إلى ابن رشد أم الحاجة إلى مجتمع المعرفة»: « إنّ الحاجة لابن رشد هي حاجة إيدولوجية أمام زحف الأصولية، والتي تسعى إلى إزاحة كل ما هو عقلاني في التراث العربي والإسلامي»،«والحاجة لابن رشد يجب أن تشمل في لفت الانتباه إلى كيفية فهم ابن رشد للفلسفة وممارسته لها، والكشف عن محدودية الأمثولية الرشدية بالنسبة إلى الفيلسوف العربي الباحث عن تحرير الفلسفة من جميع الوصايات وإعطائها حقها الكامل في النمو وتثقيف العقول»، فالفلسفة لا يمكن أن تربطها برباط الدين، أو أن تحجرها بعقل معين، أو حياة معينة، فهي من أصلها منفتحة، قائمة على التفكر والتمعن، ولا يمكن أن تنقاد، فهي تقود ولا تنقاد، وما كانت الفلسفة مخالفة للدين نهائيًا، وإنما جاءت داعمة للدين من نواحيه المختلفة، وهذا ما فعله ابن رشد.

abdlla1991@gmail.com